

ابن رشيق المسيلي شاعرا وناقدا

أ. عبد العزيز شويط

جامعة جيجل

مقدمة

إنه من الأهمية بمكان أن نعترف بتأثير البيئة على أي نشاط بشري فكري أم يدوي علمي أم فني، إن ذلك أمر مسلم به و هكذا قضية لا يختلف فيها اثنان، حتى قيل: هذه سيوف هندية و هذا خط فارسي و تلك فلسفة إغريقية... إلخ وقيل أيضا هذا أدب شامي وذلك حجازي أو نجدية أو شامي أو عراقي أو أندلسي و حتى مغربي .

إن هاهنا مثار الاهتمام في القضية حين يتعلق الأمر بابن رشيق المسيلي أولا ثم القيرواني ثانيا و لكن هيهات هيهات سارت به الركبان ولا يمكن أن يرجع كما لا يرجع اللب إلى الضرع و اللب كان جزائريا ، فإن نوزعنا فيه نازعنا في ابن خلدون و قلعة بني سلامان وإن تراضينا على الاشتراك رضينا به، أعني تأثير المكان والزمان اللذين تجمعهما البيئة على النشاط البشري و الإنتاج العملي الإنساني، هذه الفاعلية الإلزامية الموجهة لإنتاج أثر نافع كما يقولون .

والحق أنني أردت أن أُلج باب ابن رشيق المسيلي الناقد العالم، والمنهجي الصارم والفنان الشاعر من باب الخصوصية الفنية الجزائرية و المسيلية بالضبط ، ما دام جميع من تحدث عن ابن رشيق تلازمهم عبارة : تأدب بالمسيلة ثم رحل إلى القيروان¹ ، بما فيهم هو نفسه ابن رشيق ، على اعتبار أنها حاضرة علم في ذلك الوقت شاء لها الله و فق منطق التداول الحضاري و مسرة الأزمان أن تكون كذلك .

¹ - راجع في ذلك مثلا مقدمة تحقيق العمدة. لابن رشيق القيرواني تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، مطبعة السعادة مصر ، ط 03 ، 1963 . ص : 10 . وراجع تعريف ابن رشيق بنفسه في : أنموذج الزمان في شعراء القيروان ، تحقيق محمد العروسي المطوي و بشير البكوش ، الدار التونسية للنشر تونس و المؤسسة الوطنية للنشر و التوزيع الجزائر ، دط ، 1986 ، ص : 05 . و في ص : 439 . (تعريفه بنفسه)

من قال إن العوامل المكانية والزمانية لا تطبع العمل والصناعة و الإنتاج بطابعها الخاص و تترك عليه بصماتها المميزة و الخاصة ؟ ، فهل قمع البلبوني - و أنا أعني وأعي ما أقول - كقمح الهلال الخصيب أو شبه جزيرة إيبيريا التي زایل العرب إليها وارتحلوا حاملين معهم تراثهم الفكري و الأدبي و موروثهم الثقافي على وجه الخصوص، ليتفاعل مع ما يجده من مؤثرات ثقافية و طبيعية مادية و معنوية ؟ أعتقد جازما أن الجواب سيكون بالنفي .،فتلك هي قبائل البربر متلاقحين مع العرب منتجين إكسير الحياة الروحية السامية متربعة على أراضي الحضنة الرشيقية .

ما من شك في أن للمكان و الزمان أثره الواضح على الأدب و على درس الأدب ((النقد)) و من ثمة رأينا نتاج العقلية المغربية في ميدان النقد الأدبي عموما و نقد القريض على وجه الخصوص مميزا كل التميز عن قدامة ابن جعفر و ابن طباطبا العلوي و أبي هلال العسكري و الجرجانيين و ابن قتيبة و حتى عن الجاحظ و الباقلاني، إذ المكان غير المكان و الزمان غير الزمان فضلا عن الشخص الذي هو في حقيقة أمره ابن الزمان و المكان .

و لعل أول خصوصية تميز ابن رشيق عن هؤلاء النقاد الكبار أنه شاعر جمع بين النقد و الممارسة الفنية، فأدرك عوامل تكوينها و كيفية إخراجها. فكان المسؤول الأعمم بالأمر من السائل و المجرب الأعمم بالأمر من المطلع .فإلى أي مدى استفاد ابن رشيق من تخصصه النقدي في صياغة تجربة شعرية فذة ؟ وإلى أي مدى استفاد من تجربته الإبداعية في التعبير عن نظرية نقدية واعية مبنية على التجربة و الممارسة ؟ وما هي العوامل البيئية المخرجة لنا ابن رشيق ناقدا و شاعرا ؟ .

ابن رشيق المسيلي الثقافة المشرقية و العقلية المغربية

إن أرضا أنبتت ابن خلدون و المقرئ و البوني لقادرة على إنبات غيرهم دونهم أو فوقهم علما و معرفة من قبلهم و من بعدهم ، إنها أرض المغرب التي صدر بشأنها خطاب الرفض الذي من شأن الناس أن ينقدوه : هذه بضاعتنا ردت إلينا ، فما تزال عقدة المغرب شوكة في حلق غير المنصفين من المشاركة إلى زمن ابن رشيق . فأرض المغرب أرض تفوق أدبي و علمي بدون منازع ، يكفيها أنها كانت حلقة الوصل بين المشرق و الأندلس و ما أدراك ما الأندلس علما و حضارة أدبا و ثقافة و تواسلا لؤسس الدولة العربية .

فالحقيقة التاريخية تقول : أنه و ((في زمن باديس الصنهاجي و ابنه المعز بلغت القيروان ذروة النهضة في الحياتين العلمية و الأدبية ، ويكفي أن نذكر أمثال الرقيق المؤرخ وابن رشيق و ابن شرف و الحصري صاحب زهر الآداب))¹ . فهؤلاء حملة ألوية العلم و الأدب في المغرب العربي يضاهاون أمثالهم في المشرق العربي و لا فخر ، فما أجدر أن نعيد مقولة : أولئك رجال و نحن رجال . و أن ننقلها من تحولات الزمان إلى تحولات المكان، و من ثنائية القديم و الحديث إلى ثنائية المشرق و المغرب و لا فخر . ثم أن الجميل أن صاحبنا ابن رشيق مذكور في هؤلاء و معدود بينهم ، كان له شرف التلمذ على بعضهم و الزمالة مع بعضهم الآخر و تخرج الكثير ممن لم نذكرهم على يده ((ويمكن أن يعد عبد الكريم النهشلي أستاذا لابن رشيق و من أبعد الشخصيات تأثيرا فيه، فكتاب العمدة ينطق بما يكرهه له ابن رشيق من تقدير و إجلال))² . فقد كان ابن رشيق المسيلي إذن تلميذا لعبد الكريم النهشلي ، فتحقق له التحصيل العلمي الممتاز من خلال ملقته العلم متخصصا في الأدب و اللغة و النقد و مستفيدا من الظروف العلمية الراقية التي كانت تسود جو المغرب في القرن الخامس الهجري . ((وهكذا كانت جميع العوامل مسعفة على ظهور حركة نقدية في القيروان ، فكان من أعلامها أبو عبد الله القزاز الذي ألف كتابا في ما أخذ على أبي الطيب ، و ابن ميخائيل إلا أننا لا نعرف له مؤلفا نقديا ، و عبد الكريم بن إبراهيم النهشلي صاحب كتاب "الممتع" و ابن رشيق مؤلف العمدة وقرضاة الذهب و الأنموذج في شعراء القيروان و ابن شرف الذي هاجر إلى الأندلس بعد خراب القيروان و هنالك كتب " رسالة الأضداد "))³ . و كان التقارب بين هؤلاء النقاد بالغاً و التشابه في المستوى كبيرا - و هي ميزة و حسنة - حتى ((يدل ما تبقى من كتاب "الممتع في علم الشعر وعمله" على أن بعض أبواب العمدة إنما رسمت على مثاله مثل: السؤال بالشعر ، في من نوه به المدح و خطه الهجاء ، النهي عن التعرض للشعراء ، الحديث عن أغراض الشعر من مدح و هجاء))⁴ .

1 - إحسان عباس ، تاريخ النقد الأدبي عند العرب ، دار الشروق للنشر و التوزيع ، عمان

الأردن ، دط ، دت ، ص : 439 .

2 - المرجع نفسه ، ص : 440 .

3 - المرجع نفسه ، ص : 440 .

4 - المرجع نفسه ، ص : 441 .

ومن ثمة نجزم بأن الحركة النقدية كانت - و الحق يقال - تتميز بالشمولية، و إلا فما الدعوى إلى تشابه ناقدين في منهج تأليفهما النقدي، إن التأثير و التأثر إذا تكرر و كثر بين نقاد العصر الواحد و البلد الواحد فسر بالشمولية و بالحركية في الفعل. و دل على ذلك بالجو العلمي النقدي الذي كان يطبع البلد إلى درجة نشوء المذهب النقدي الخاص و المدرسة العلمية المميزة. و هو الأمر الذي كان بالفعل .

ابن رشيق : الناقد . الناقل ، الوصف و المصدق

لقد شارك ابن رشيق في نقل التراث النقدي العربي. هكذا يحلو للدارسين العرب المحدثين تعريف ابن رشيق بأهم مهنة اشتغل بها وهي مهنة النقد التي طغت عليه فيقولون عنه: ((أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني المتوفي عام 456 من أشهر نقاد الشعر في القرن الخامس الهجري ، وكتابه العمدة في محاسن الشعر ونقده مشهور بين الأدباء و النقاد وهو أجمع كتاب في بابيه، ولم يؤلف في موضوعه مثله. و الكتاب احتذاء لمنهج قدامة بن جعفر في الكتابة عن الشعر ونقده. فمنهج قدامة في النقد في كتابه " نقد الشعر " هو منهج ابن رشيق في العمدة مع اختلافات قليلة، وقد عرض ابن رشيق لقدامة في كتابه في كثير من المواضع واستمد من آراء الأمدي وأبي هلال العسكري وأخذ عنهما الكثير من الآراء النقدية. وكتاب العمدة على أنه بحال من الأحوال من الأصول والمصادر الكبيرة في النقد الأدبي في أدبنا العربي و هو ذخيرة لا يستغني عنها أحد))¹.

إن كان قليل من التأثر والنقل وكثير من الإبداع والتجاوز وإن تشابه المنهج وتشابهت الأفكار إلى حد ما. هذا وإن كنا نرى الدكتور إحسان عباس في بعض المواضع من كتابه: " تاريخ النقد الأدبي عند العرب " يعتبر كتاب " العمدة في محاسن الشعر و نقده " - كما سماه صاحبه وهو واع بكلمة نقده وبالفروقات الدلالية بين نقده بمعنى جمع الآراء النقدية له ونقده بمعنى جمع الآراء النقدية له والإضافة إليها أشياء جديدة أملتتها عليه طبيعته العلمية وبيئته المكانية والزمانية وتطور الشعر العربي في عصره - يعتبره مجرد كتاب نقلي في باب النقد - وهو حسبما يفهم من كلامه يعد النقل المرفق بظهور شخصية صاحبه نقدا - خاصة حين يتحدث عن آثار ابن رشيق وحيث يقول : ((ولكن كتاب

¹ - محمد عبد المنعم خفاجي ، دراسات في النقد الأدبي دار الطباعة المحمدية الأزهر ، القاهرة، مصر ، ط، دت ، ص : 261 .

العمدة أهمها و أبعدها أثرا ، فهو كتاب جامع من حيث أنه معرض للآراء النقدية التي ظهرت في المشرق حتى عصر ابن رشيق ، ألفه لأبي الحسن علي بن أبي الرجال الذي كان يعد هو و أهل بيته برامكة إفريقية ، و قد ذكر في مقدمة الكتاب أنه رأى الناس قد بوبو الكلام في الشعر تبويبا مبهما و ضرب كل واحد من جهة ، فجمع أحسن ما قاله كل واحد منهم في كتابه))¹ . ثم يعود إحسان عباس فيستدرك شيئا مهما ، فرغم كون ابن رشيق صاهرا لآراء الآخرين فيقول : ((ولكن ابن رشيق رغم ذلك ناقد قدير ، لم تضع شخصيته بين آراء عبد الكريم و الجمحي و المبرد و الجاحظ و ابن و كيح و الرماني ودعل و الجرجاني و المرزوقي و ابن قتيبة و قدامة و الحمار السرقسطي و كثير غيرهم " سواء صرح بأسمائهم أو لم يصرح " و لعل ابن رشيق أبرز مثال على الناقد الذي يملك الإعجاب عن طريق شخصيته لا عن طريق الجدة في الرأي و لو قارنا بينه و بين العسكري صاحب الصناعتين و هما متشابهان في بناء مؤلفيهما من كتب الآخرين و آرائهم، لوجدنا العسكري مصنفا وحسب ، باهت الشخصية لا سبيل إلى عده ناقدًا ، بينما يقف ابن رشيق بحيويته و ففة بارزة بين نقاد القرن الخامس ، هذا على الرغم من أن كتاب الصناعتين أدق تبويبا من كتاب العمدة ، غير أن كتاب العمدة يمتاز بين كتب النقد الأدبي بأنه احتوى أكثر ما يريده المتأدب ، من حديث عن الشعر و حديث في الشعر نفسه، فكل فصل فيه مستغن بنفسه حسن الإيراد و الاقتصاص للخبر و الرأي معا ، ولهذا فيما أعتقد نال الكتاب حضوة واسعة بعد القرن الخامس الهجري ، و أصبح مثالا يحتذى من يكتبون في علم الشعر ، و منهلا لطلاب النقد الأدبي يدرسه الدارسون و يلخصه الملخصون ، حتى نال ثناء عريض من ابن خلدون ، لأن المثقف الذي كان يحرص على شيء من المعرفة النقدية لم يعد إذا قرأه بحاجة إلى أن يقرأ قدامة و الأمدي و الحاتمي و الجرجاني ، إذ استخرج ابن رشيق خير ما عندهم و أودعه كتابه ، و هؤلاء هم أئمة النقد ، فما ظنك إذا وجد فيه القارئ خير ما عند غيرهم أيضا))² .

و الحق أن تفضيل ابن رشيق على أبي هلال العسكري من قبل الدكتور إحسان عباس من خلال كتابيهما العمدة و الصناعتين مبني و مؤسس على نقاط منهجية ارتضاها

¹ - إحسان عباس ، تاريخ النقد الأدبي عند العرب ، ص 444 .

² - المرجع السابق ، ص 447

الدكتور إحسان عباس ، لكن الذي يهم أنه تحدث بشيء من الاعتراف بقيمة العمدة ككتاب نقدي نقلي و هي قيمة جبارة عند الذين يعتبرون النقل ما لم تضع فيه شخصية الناقل نقداً، وهنا يحلو السؤال ، أليس ظهور الشخصية لدى الناقل الناقد شيء جديد و هو التجديد المنافي لمطلق النقل ؟ سأترك الجواب للدكتور الجليل إحسان عباس .

ابن رشيق: واقع النقل في الممارسة النقدية و حقيقة التجاوز

أولا إن التعرض للشعراء المغاربة ممن لم يتعرض لهم أي ناقد مشرقي ممن وصلتنا كتبهم النقدية سبق و تجديد نقدي ، وقد فعل ابن رشيق المسيلي ذلك في مختاراته الشعرية أنموذج الزمان في شعراء القيروان . إذ ترجم و مثل بالشعر لمائة شاعر من شعراء المغرب العربي .

وأما ثانيا فلقد كان ابن رشيق المسيلي ناقدا بحق إن لم يكن أبرع نقاد القرن الخامس الهجري على الإطلاق ، يكفيه اعتراف النقاد و الدارسون القدامى و المحدثون بأنه ناقد، أولا وثانيا لقد أضافوا له ما قالوا به بأن ((ابن رشيق قد نقل النقد من المشرق إلى المغرب في هذا القرن))¹ يكفيه - وقبل الخوض في محتويات الكتاب - أن كتابه العمدة في محاسن الشعر و نقده أكبر حجما وموضوعات من العيار والوساطة ونقد الشعر ونقد النثر وغيره من كتب النقد التي سبقته أو جاءت بعده، بشرط أن تكون بحق متخصصة في ميدان النقد و بابه. فلقد خاض ابن رشيق في كل ما خاض فيه نقادنا القدامى من قضايا نقدية، التزم في بعضها المساهمة في الموافقة والقبول ناقلا وأشار في بعضها الآخر إلى التخابير في الموقف متجاوزا ومساهما في حركة النقد العربي برأيه الخاص.

فأول ما حاز الاتفاق عليه بين النقاد العرب القدامى ، إذ ((يتفق الجميع على ضرورة الثقافة للشاعر، فيجعلها ابن رشيق في معرفة الأنساب و الوقائع و الأيام و ملوك العرب و منازل القمر بالإضافة إلى مطالعة الشعر طبعا و روايته و تخير الأجدود فيه))² وهي فكرة مبنوثة بين ثنايا الكتب الأدبية النقدية من قبل مجيء ابن رشيق رحمه الله إلى

¹ - - محمد زغلول سلام ، تاريخ النقد العربي ، دار المعارف مصر ، دط ، دت ، ج 02 ،

ص: 131 .

² - محي الدين صبحي : نظرية النقد العربي وتطورها إلى عصرنا ، الدار العربية للكتاب ليبيا، تونس ، دط ، 1984 ، ص : 21 .

هذا العالم ، و لست مبالغا إذا قلت أن أم جندب زوج امرئ القيس الناقدة و طرفة بن العبد "صاحب استنوق الجمل" لو سألناهما عن ما الذي يجعل الشاعر شاعرا ؟ لأجابا : قراءة و رواية و حفظ أشعار الأولين . وهي تمام الثقافة في ذلك العصر على الأقل . في هذه القضية كان لابن رشيق التجديد في الرأي و التجاوز من خلال وصف الواقع الذوقي عند القدماء و عند المعاصرين من المتلقين للشعر العربي تلق علمي نقدي أو تلق فني تعليمي ذوقي و متاعي أو تلق أبداعى عند الشعراء الممارسين الشعر . و يظهر ذلك عند محمد زكي العشماوي حين يتعلق الأمر بقضية اللفظ و المعنى والتعليق عليها ، فقد انتهى به منطق استدلاله بابن رشيق و بالقرن الخامس الهجري كحد للاحتجاج الدلالي على المعالجة لهذه القضية بطريقة شافية كافية و لو وجد الشفاء فيما هو منتوج قبله لرجع إليه ، فهل خفي عليه ما كتب في هذه المسألة قبل ابن رشيق من قبل النقد و كان في مستوى حديث ابن رشيق عنها و إشارته إليها كمسألة من أهم مسائل النقد العربي القديم طرقها حتى الجاحظ رحمة الله عليه ؟ فيقول العشماوي :

((ولماذا نذهب بعيدا؟ فقد أشار ناقد عربي قديم هو ابن رشيق القيرواني في القرن الخامس الهجري إلى هذه الحقيقة التي نحاول بيانها في هذه الفصول فهو يصرح إلى أن " من الناس من يؤثر اللفظ على المعنى فيجعله غايته و وكده ، و هم فرق: قوم يذهبون إلى فخامة الكلام و جزالته على مذهب العرب من غير تصنع" كقول بشار :

إذا ما غضبنا غضبة مضرية هتكنا حجاب الشمس أو قطرت دما

إذا ما أعرنا سيذا من قبيلة ذرى منبر صلى علينا وسلما...))¹

ثم إن التجاوز لا يمليه الوقوع على رأي نقدي مؤسس يخالف أو يضيف على آراء النقد الأوائل شيئا جديدا، وإنما التجاوز قد يتعلق بأمر مستحدثة يفرضها العصر وتقدمه عبر سيرورة الزمن و صيرورته بالإضافة إلى تغير البيئة، انظر إلى ابن رشيق كيف امتد نقده إلى شعراء ما كان يدري قدامة بن جعفر ما هم وما شعرهم متقددا عنهم في الزمان و بعيد عنهم في المكان، وإن الناظر إلى كتاب العمدة ليجد آراء نقدية لناقدنا ابن

¹ - محمد زكي العشماوي ، قضايا النقد الأدبي بين القديم و الحديث ، دار النهضة العربية ، بيروت لبنان ، دط ، 1979 .

رشيق تتعلق بشعراء مغاربة عاشوا في القرن الخامس الهجري لم يتطرق إليهم أي ناقد معهود في النقد غيره، وإن المتفحص لأنموذج الزمان في شعراء القيروان، وهو عبارة عن مختارات لمائة شاعر ممن مروا ذات زمان رشيق على حاضرة القيروان بما فيهم هو نفسه حسن بن رشيق الذي ترجم لنفسه أخيرا (مائة) هؤلاء الشعراء لا نجد لهم ذكرا في أي كتاب نقدي لعمالقة وأساطين وكهان النقد العربي القديم¹. وهنا التجاوز الذي مثله ابن رشيق.

أما المخالفة في الرأي النقدي فنجد عند ابن رشيق من خلال ما وصف به موقفه من قضية القدماء و المحدثين ، هل هذا راجع إلى اعتداده بالمحدثين و هو منهم لأنه منهم؟ أم لسبب آخر ، المهم أن ابن رشيق ((يقف موقفا غريبا من القدماء و المحدثين ، إذ يذهب حيناً إلى تفضيل القدماء و الشعر القديم عامة مهما كانت مكانته ، و درجته ، وهو الشاعر المحدث المتأنق الصانع في شعره ، وربما خالف في اتجاهه هذا بعض معاصريه بل أكثر معاصريه أمثال ابن شرف وبقية شعراء الأندلس ومال بعض الميل إلى اتجاه أستاذه عبد الكريم ومعاصره في الأندلس ابن شهيد .

ويبدو من شعره أنه كان يتكئ على معاني القدماء و أساليبهم ، كغيره أيضا من شعراء المغرب وكان كثير الحفظ لأخبار الشعراء و أشعارهم))².

و يعد الكثير من النقاد و الدارسين العرب المحدثين ابن رشيق من النقاد الكبار ذوي الأصالة في ميدان النقد و منهم الدكتور محمد الربادوي الذي يجعل لابن رشيق سبق في الاستيفاء فيقول عنه مستندا على آراء الدكتور عبد الرحمن ياغي ما نصه: ((صاحب كتاب العمدة في محاسن الشعر و آدابه ونقده ، وقد وصف ابن رشيق هذا بأنه من بلغاء القيروان ، من المتبحرين في الآداب و المطلعين على كلام الناس .

وقد وصف ابن خلدون كتاب العمدة فقال: (و هو الكتاب الذي انفرد بهذه الصناعة وأعطاه حقها ، ولم يكتب فيها أحد قبله) وكرر هذا المعنى في أكثر من مكان من المقدمة، وفي كل مرة يشير إلى أن صناعة البيان وعلم الشعر مستوفاة في كتاب العمدة ومن أراد استيفاء ذلك فعليه بذلك ففيه البغية ، ويذهب الدكتور عبد الرحمن ياغي إلى أن الفضل يرجع إلى ابن رشيق ، لأنه الناقد المغربي الذي وقع على نظريات متفرقة في النقد

¹ - ينظر: ابن رشيق القيرواني: أنموذج الزمان في شعراء القيروان.

² - محمد زغلول سلام ، تاريخ النقد العربي ، ص : 131

فصاغ من شتاتها كتاب العمدة و انتقل بها من الفوضوية إلى المنهجية ومن الأحكام الجزئية المفرقة في بطون الكتب إلى التبويب و التنظيم))¹. ((وقد فصل ابن رشيق بين البديهة و الارتجال فصلا دقيقا فقال : ((البديهة عند كثير من أهل عصرنا الارتجال ، وليست به ، لأن البديهة فيها الفكرة و التأيد . و الارتجال ما كان انهمازا و تدفقا لا يتوقف فيه صاحبه))². و لعلك تلاحظ ملازمة ابن رشيق لكلمة لأن التحليلية ، و هي الأداة التفسيرية التحليلية التي يحتاج إليها كل ناقد يريد أن يدلل على آرائه النقدية مقنعا به المتلقي ، و هو الأمر المنهجي الذي أصبح النقد العربي مرتكزا عليه في عصر ابن خلدون و عصور النقد المنهجي عند العرب فيما بعد .

ثم نجد تجديدا آخر لابن رشيق في سياق ممارسته لعملية النقد تطبيقا وتمييزا بين الجيد و الرديء و تنظيرا أيضا من خلال النقل و الجمع ولما لا من خلال نقد النقد، ففي مسألة تعريف الشعر ((أراد ابن رشيق أن يعرف الشعر ويذكر عناصره، فقال في باب حد الشعر بعد النية:)) (إنه مكون من أربعة أشياء، وهي اللفظ والوزن والمعنى والقافية، فهذا هو حد الشعر لأن من الكلام كلاما موزونا مقفى وليس بشعر لعدم الصنعة والنية كأشياء اتزنت من القرآن ومن كلام النبي صلى الله عليه وسلم، وغير ذلك مما لم يطلق عليه أنه شعر))³. هذه المعطيات - بصراحة تامة - لا يعبر عنها من سمع كمن رأي، مع احتراماتي البالغة لنقادنا القدامى غير الشعراء، وحتى وإن عبروا عنها من خلال فهمهم العميق والدقيق و الشامل لعملية الإبداع الشعري الذي تلقوه ومارسوا تأويله ونقده يكون تعبير الأدباء النقاد في أغلب الأحيان أعمق، إن الأمر هنا ليس اللفظ والمعنى أو السرقة أو غيرها من مسائل النقد، الأمر هنا يتعلق بالمفهوم والماهية، و أصحابه أدري به من غيرهم .

تبقى قضية الشمولية والتكامل النقدي وهي تقابل في الشعر الكثرة والاستيفاء — ((يمكن أن نعد عمل ابن رشيق في كتبه الثلاثة متكاملًا فقد حاول في دراسته لشعراء القيروان في كتاب الأنموذج أن يطبق بعض القواعد النقدية التي حشدها في كتاب العمدة

¹ - د/ محمد الريدوي ، الحركة النقدية حول مذهب أبي تمام ، دار الفكر بيروت لبنان ، ط ، دت ، ص : 387 .

2 - محي الدين صبحي : نظرية النقد العربي وتطورها إلى عصرنا : ص : 32

3 - أحمد الشايب ، أصول النقد الأدبي ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة مصر ، ط 07 ، 1964 .

وعرض في أحد الفصول الأخيرة من العمدة لقضية السرقة في الشعر موردا فيها آراء العلماء وبعض أمثلتهم حتى إذا تعرض هو نفسه لتهمة السرقة عمل رسالة" قراضة الذهب " ليدل على إطلاعه ومقدرته في هذه الناحية بما يضعه في مصاف من تعرضوا لهذا الموضوع من النقاد)).¹

و يعدد الدكتور إحسان عباس مميزات ابن رشيق - و لست أدري أيعده به ناقدًا متجاوزًا و مجددًا أم هي لا ترقى عنده إلى الناقد المجدد و لا ترقيه عنده إلى ذلك - فيجعلها: 01 طرفاة التجربة ((فهو يقترب من قلب القارئ بأن يقص عليه تجاربه في الصنعة الشعرية ، فمن ذلك قوله في كيفية عمل القصيدة :و الصواب عندي (...)). 02 - الجراءة. 03 - طرفاة الرأي . 04 - تأثيره بالإقليمية. 05 - اتساع نطاق الفهم النفسي لوظيفته الشعر. 06 - إيمانه بقيمة التجربة الحسية .²

وسأضرب مثالا مهما يتمثل في قضية من قضايا النقد العربي القديم وهي قضية اللفظ والمعنى التي أسهم ابن رشيق فيها إسهاما فيه أصالة رأي وجدة طرح وهو القائل: " اللفظ جسم وروحه المعنى " ((وعلى الرغم من أن لابن رشيق بعض الملاحظات التي قد تشير إلى ضرورة التلاحم بين اللفظ و المعنى فإنه لم يستطع أن يسلم هو نفسه من هذه القسمة ... و في هذا النص من ابن رشيق إشارات صائبة إلى ضرورة الالتحام بين اللفظ و المعنى و لو أمكن لهذه الفكرة أن تتبلور عند ابن رشيق ، و أن تدرس دراسة علمية ذوقية مستفيضة ، و مدعمة بالشواهد و التحليل لكان من الجائز أن تقضي على هذه الثنائية التي شاعت بين اللفظ و المعنى أمدًا طويلا ، و لكن ابن رشيق لم يعالج هذه القضية في كتاب على أساس منهجية ذوقية كما فعل عبد القاهر الجرجاني في نظرية النظم ... و على الرغم من أن في كلمات ابن رشيق السابقة ما يوضح طبيعة العلاقة بين اللفظ و المعنى في العمل الفني فإن مفهوم الخلق الأدبي، بوصفه كلا لا يتجزأ و لا ينفصل فيه لفظ عن معنى كما لا يسبق فيه المعنى اللفظ ، و إنما هما عنصران متلاحمان يولدان في وقت واحد . هذا المفهوم لم يكن قد استوى في نفس ابن رشيق ، يدل على ذلك بعض كلامه . وذلك حين يقول في النص السابق : " فإذا سلم المعنى و اختل بعض اللفظ كان نقصا

¹ - إحسان عباس تاريخ النقد عند العرب ، ص: 444 .

2 - المرجع نفسه ، ص : 451 - 455

للشعر، و هجنة عليه ، كما يعرض لبعض الأجسام من العرج و الشلل و العور وما أشبه ذلك من غير أن تذهب الروح. " فهو هنا يجيز إمكانية سلامة المعنى من اختلال اللفظ، كما يجيز استقلال الروح عن الجسد ، فيرى أن في الشلل و العرج و العور هجنة حتى ولو سلمت الروح، وقد يكون للجسد جمال، ولكنه لم يتعمق العلاقة بينهما ولا ما يضيفه كل منهما على الآخرين شبه تفاعل حي))¹

و لست أدري ما محل الاستدراك ولكن عند الدكتور العشماوي الناقد الكبير والدارس القدير ؟ أكان ينتظر من ابن رشيق أن يتخطى الزمن فيأتينا بنظريات البنيوية والسيمائية و ما إليها أم ماذا . إن هذا ما أتاحة الزمن و التطور العلمي لابن رشيق ، ويكفي الرجل أنه فتح الباب على مصراعيه و طرق القضية طرقا سليما باعتراف الجميع تاركا لمن يأتي بعده وفق ظروف زمانية و سيرورة التطور العلمي ليكشفوها. فهل نحاسبه على ما لم يقدمه حيث ما كان بالا مكان أن يقدره أم نشكره على ما قدمه وفق ما أتاحت له معطيات عصره و إعمال فكره إلى درجة السبق والإجادة ؟

ابن رشيق و الممارسة الفنية: التعثر و الإجادة

ما يزال النقاد و الدارسون ينبهون على حقيقة واقعية و يشيرون إليها بكتبهم ، ألا وهي ضعف شعر العلماء وعلى رأسهم الخليل و أبو الأسود الدؤلي ، و يجعلون لذلك أسبابا منها قابلية العقل إلى النبوغ و البراعة في فن واحد و ما سواه يأتي دونه . وأمام ما قال به العلماء والدارسون القدماء منهم خاصة من شيوع هذا الضعف في شعر العلماء حق لنا أن نتساءل: هل تصدق تجربة ابن رشيق العالم الناقد هذه الحقيقة أم تكذبها؟)) و في هذه الفترة شاعت وصية أبي تمام للبحثري في تخير أوقات النظم عند المساء والصبح والترويح عن النفس بارتياح الفلوات مما نجد صداه في العمدة لابن رشيق.

غير أن هذا الناقد ينفرد بعرض تجربته الشخصية في النظم إذ قال: " ومما يجمع الفكرة من طريق استلقاء الرجل على ظهره، و على كل حال فليس يفتح مقفل بحار الخواطر مثل مباركة العمل بالأسمار عند الهبوب من النوم لكون الشمس مجتمعة لم يفترق حسها في أسباب اللهو أو المعيشة وغير ذلك مما يعنيها))² ها هنا في حالة

1 - محمد زكي العشماوي ، قضايا النقد الأدبي بين القديم و الحديث ، ص : 270 .

2 - محي الدين صبحي : نظرية النقد العربي وتطورها إلى عصرنا ، ص : 21 .

الاستقفاء على الظهر السيق والتجديد والتجاوز الذي أملته التجربة الشخصية والخصوصية الذاتية والبيئية - و لم لا؟ - على هذا الناقد الكريم محققا بذلك التفرد والخصوصية النقدية والشخصية العلمية. متجنباً الاجترار في المعنى الذي يعاب ولا يعاب تحقيق قولهم:
هل غادر الشعراء من متردم أم هل عرفت الدار بعد توهم
و قولهم :

ما أَرانا نقول إلا معاراً أو معاداً من لفظنا مكروراً
فاللفظ يباح تكراره و المعنى أيضا من دون تطابق كبير أو مطلق، وما يقال عن الظاهرة الفنية يعمم على الظاهرة الدراسية النقد، و صاحبنا جمع بينهما.
ثم انظر مرة أخرى إلى التعليل الكامن في " لأن " التي أوردها الرجل و هو يتحدث عن المباكرة كيف عبر بها عن الأسباب العلمية حسب ما يقتضيه تطور العلم و خاصة علم النجوم و التي تجعل من الصباح أليق و أنسب لقول الشعر و شذذ القريحة .
والحق أن مشكلة ابن رشيق- إذا عدناها أصلاً مشكلة- هي الخلط بين نقده وإبداعه، فهو كثيراً ما يستل على آرائه النقدية بتجربته الإبداعية و دواعي القول الشعري عنده، فمثلاً إذا أخذنا مؤلفه قراضة الذهب ((يحدثنا ابن رشيق في هذه الرسالة عن بعض تجاربه الخاصة، إذ يرى أن بعض ما يقع اتفاقاً لا يعد سرقة، فهو قد نظم قصيدة في رثاء السيدة الجليلة، فذكر حلق الشعور و لبس المسوح. ورثى آخر فذكر الكسوف، و هذا لا يعد سرقة))¹
إذ تتبعنا ابن رشيق في حكمه على شعره وجدناه صراحة و كما يوضح الأصبحي مفرقا بين تجربته الشعرية و تجربته النقدية ، حيث حكم على شعره بأنه متواضع على الإجمال مستعملاً عبارة غير المفلق ، و هو لا يعد منقصة في حق شعر ابن رشيق و حكم على نقده بالأحسن فقال : ((و إذا كان ابن رشيق يشهد لنفسه بسرعة الخاطر و توقد القريحة فإن ما وصل إلينا من شعره لا يدل على أنه ذلك الشاعر المفلق ، وأما رأيه في بناء القصيدة فيدل على قريحة نقدية ثاقبة " و من الناس من يستحسن الشعر مبنياً بعضه على بعض ، و أنا أستحسن أن يكون كل بيت قائماً بنفسه لا يحتاج إلى ما

1 إحسان عباس تاريخ النقد عند العرب ، ص: 458

قبله و لا إلى ما بعده ، وما سوى ذلك فهو عندي تقصير إلا في مواضيع معروفة مثل الحكايات وما شاكلها فإن بناء اللفظ على اللفظ أجود هنالك من جهة السرد))¹ .
ثم انظر إلى هذا التجاوز الذي تنبه إليه ابن رشيق منبها هو بدوره من جاء بعده من النقاد إليها و مستلهما بوعي ظروف عصره العلمية و الثقافية ((و هذا رأي في منتهى الأصالة إذا أخذنا الجو النقدي السائد في القرن الخامس الهجري ، فهو يفسح المجال لمعاملة الشعر القصصي معاملة مختلفة عن بقية الشعر ، و هذا كان كفيلا بأن يفتح بابا جديدا في طرق البناء الشعري خاصة و أن الفارابي و ابن سينا لفتا الأنظار إلى أن أشعار الأمم الأخرى لا تلتزم بقافية موحدة))² . إذن نقد ابن رشيق المتأثر بالمؤثرات العلمية و الفلسفية الحادثة و الاطلاع على ما هو سائد عند الآخر حقق له جانبا من التفرد و أكسبه قدرا من التميز و الخصوصية ، و إن كان تأثر حازم بهذه الروافد الثقافية و المجالات المعرفية أعمق و أشمل ، و خاصة المنطق و الفلسفة .

ثمة قضية أخرى يستدل عليها ابن رشيق بتجربته الشعرية - وما أكثر القضايا التي يفعل فيها ذلك - و هي قضية مستلزمات طريقة النظم للأبيات الشعرية ((و قد عبر ابن رشيق عن هذه الأمور أجود تعبير حين عرض تجربته في النظم فقال : "والصواب أن لا يضع الشاعر بيتا لا يعرف قافيته ، غير أنني لا أجد ذلك في طبعي جملة و لا أقدر عليه بل أصنع القسيم الأول على ما أريده ثم ألتمس لنفسي ما يليق به من القوافي بعد ذلك فأبني عليه القسيم الثاني ، أفعل ذلك فيه كما يفعل من يبني البيت كله على القافية ولم أر ذلك بمخلّ عليّ و لا يزيحني عن مرادي ، و لا يغير عليّ شيئا من لفظ القسيم الأول إلا في الندرة التي يعتد بها أو على جهة التتقيح المفرط))³ . و هي تجربة مغنية تعليلا للعملية الإبداعية و تعريفا بها و شهادة ما أحوج النقاد إليها يقدمها شاعر من منطلق و عيه بحاجة الدرس الأدبي و النقاد إلى تحليل الإبداع مثلما فعل ذلك به فيما بعد عند المنشغلين بالعوامل النفسية و العوامل الاجتماعية و الأنثروبولوجية في تكوين العمل الفني عامة و العمل الشعري على وجه الخصوص ، بما في ذلك طريقة

1 - المرجع نفسه ص: 25 .

2 - المرجع نفسه ص: 25 أيضا

3 - محي الدين صبحي ، نظرية النقد العربي وتطورها إلى عصرنا ، ص: 25 .

الإبداع و كيفية الإنتاج و ميكانيزمات الخلق الأدبي . و هو ما لم يغفل عنه ابن رشيق وغفل عنه الكثير من الشعراء ، اللهم ما تعلق بالفرزدق وقوله : يمر علي يوم و خلع ضرس أهون علي من قول بيت شعر و غيرها من التعليقات على كيفية الإبداع و دواعيه من قبل الشعراء و هي - و الحق يقال - قليلة من عند أصحاب الاختصاص المخولين للخوض فيه ، الشعراء قبل غيرهم .

ثم نرى الكثير من الدارسين يعترفون بشاعرية ابن رشيق فمنهم من يقول: ((وتعددت جوانب ابن رشيق الأدبية و العلمية ، فهو شاعر ناقد مؤرخ لغوي، ولكن غلب عليه جانبنا الشعر والنقد، وله ديوان شعر كبير تناقل كثير من المؤلفين قصائده في موضوعات مختلفة . ولا يختلف شعره كثيرا عن شعر معاصريه في موضوعا ته فهو يغرق في المديح والتملق والمبالغة في صفات الممدوح مع اصطناع الظرف أحيانا والمبادرة إلى القول فيما يعرض من موضوعات أو يقترح في المجلس إلى جانب الغزل بالمؤنث والمذكر ووصف الخمر والروضيات ومجالس اللهو ويتفق شعره مع روح عصره في أسلوبه وديباجته، وميله للأوزان الخفيفة والرقيقة والإكثار من التشبيهات والاستعارات ، وإن كان لا يميل إلى الصنعة كثيرا كالجناس و الطباق، و لوأنه لم يخل منها))¹ حتى أن الديوان الشعري الذي بين أيدينا لابن رشيق يحتوي على ما يزيد عن مائتي قصيدة ومقطوعة موزعة الفاقية على جميع حروف المعجم فاستحق اعتراف الناس بشاعريته كما وكيف كثرة متواضعة وجودة مثلها حتى قال شارح ديوانه ما نصه: ((وها نحن نواصل جهودنا السابقة، فنقدم للقارئ العربي ديوان الأديب الشاعر أبي علي الحسن بن رشيق القيرواني، الذي تألق في القيروان في القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، وترك لدارسي الأدب مجموعة نفيسة من كتب البلاغة و الترجمة والنقد))² إذن كان ابن رشيق مترجما.

و تأتي جهود الهواري شارح ديوانه مرحلة متقدمة بعد جهود عبد العزيز الميمني وعبد الرحمن ياغي في جمع أشعار ابن رشيق من بطون كتب اللغة و الأدب العربي ، فلم يكتف بالجمع و التحقيق بل زاد عليه الشرح و الضبط و التدقيق و الفهرسة و التحقيق

¹ - محمد زغلول سلام، تاريخ النقد العربي، دار المعارف مصر، دط، دت، ج 02، ص: 130.

² - ديوان ابن رشيق القيرواني ، شرح د صلاح الدين الهواري و هدي عودة ، دار الجيل

بيروت لبنان ط 01، 1996 .

والترتيب و التوثيق فقال : ((وكنا نأمل أن نعثر على الديوان الذي رجح معظم الذين ترجموا لابن رشيق أنه تركه مخطوطا ضمن مؤلفاته الكثيرة ، لكن يبدو أن ذلك الديوان لم يسلم من التلف و الضياع ، بفعل ما تعرضت له القيروان من أحداث دامية ، أو بسبب انتقال ابن رشيق إلى صقلية ، وموته في إحدى مدنها ، من غير أن يكون معه من يعنى بالحفاظ على ما في حوزته من مؤلفات .أو ربما كان اهتمام الناس ب ((نقد)) ابن رشيق أكثر من اهتمامهم بشعره ، فحفظت كتبه النقدية و في طليعتها كتاب ((العمدة)) ، وضاع ديوان شعره .))¹ و لكن الجهود منصبة من قبل الكثير من الدارسين يحاولون جمع أشعار الشعراء الذين ضاعت أشعارهم. يبحثون عنها بين ثنايا كتب اللغة و الأدب القديمة، عسى يجمعون مدونات الشعراء إن ليس كاملة فعلى الأقل ما تيسر من أشعارهم.

الخاتمة

هكذا إذن نأتي إلى خاتمة هذه المداخلة معترفين بقدر الرجل العلمي كعلم من أعلام النقد العربي القديم ، يطالعنا بعدة مؤلفات في ميدان النقد و الشعر ، نلمس فيها جوانب تاريخية عن تاريخ المغرب العربي في القرن الخامس الهجري ، لنجد ذلك التوفيق العجيب بين الإبداع و النقد ، بين الفن و العلم ، الرجل كان صائغا ، و في الصياغة انتقاد الدراهم و المعادن و تمييز الصحيح فيها من الزائف ، وفيه أيضا الفنية في تشكيل التحف و صناعتها ، إنها ثنائية عجيبة اجتمع طرفاها في ابن رشيق المسيلي ، الشعر و المعادن النفيسة صناعة و نقدا . لقد تدرب الرجل على التمييز بين جيد الأدب و رديئه من تجربته في التمييز بين الذهب و الفضة . فما من شك أنه سوف ينجح ، و لقد نجح حتى عد ناقدا ممنهجا ، حتى عد كتابه العمدة أشبه ما يكون برسالة دكتوراه .

لم يضر ابن رشيق أن شعره ليس في مستوى شعره فالعصر نعم عصر الموسوعية، ولكن البراعة لا بد أن تكون في فن أكثر من بقية الفنون التي يطرقها العبقرى المتعدد الاختصاصات و الموسوعي ، ما ضر ابن رشيق أن شعره متوسط الجودة كما صرح النقاد بذلك و الدارسون . و مع ذلك فهو شاعر حسن شعره، و عبقرى في ميدان نقده عبر بوعي نقلة و تجديده و أصالة رأيه عن ما وصلت إليه العبقرية الجزائرية أولا و المغربية ثانيا في مجال الأدب و النقد. فلقد كان الرجل مغربيا بحق إذ تقادى أن يقال

¹ - المصدر نفسه ، ص : 06 .

عنه كما قيل عن صاحب العقد: هذه بضاعتنا ردت إلينا . من قال أن المشاركة إذا بحثوا
عن شتات النقد العربي وجدوه مجتمعاً عند عمدة ابن رشيق المغربي ؟ و لقد كان ذلك .
وفي الأخير يحلو لي أن أختتم بأبيات قالها ابن رشيق في مدح المعز بن باديس :

عن مثل فضلك تتطق الشعراء و بمثل فخرك تفخر الأمراء
وأرى الثرى و الماء حولك حملاً ما لا يقوم له الثرى و الماء
لم يبق من طرف العراق و غيره شيء يروق العين منه رواء
حتى كأن الشرق أعمل فكره في أن حوته يمينك البيضاء

قائمة المصادر و المراجع

- ⁰¹ - ابن رشيق القيرواني ، الديوان ، شرح د صلاح الدين الهوارى و هدى عودة ، دار الجيل
بيروت لبنان ط 01 ، 1996 .
- ⁰² - كتاب العمدة في محاسن الشعر و نقده ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، مطبعة
السعادة مصر ، ط 03 ، 1963 .
- ⁰³ - أنموذج الزمان في شعراء القيروان، تحقيق محمد العروسي المطوي و بشير البكوش، الدار
التونسية للنشر تونس و المؤسسة الوطنية للنشر و التوزيع الجزائر ، ط ، 1986 .
- ⁰⁴ - محمد عبد المنعم خفاجي ، دراسات في النقد الأدبي دار الطباعة المحمدية الأزهر ،
القاهرة ، مصر ، ط ، دت .
- ⁰⁵ - محمد الريداوي، الحركة النقدية حول مذهب أبي تمام، دار الفكر بيروت لبنان، ط، دت .
- ⁰⁶ - أحمد الشايب ، أصول النقد الأدبي ، مكتبة النهضة المصرية ، ط 07 ، 1964 .
- ⁰⁷ - محي الدين صبحي ، نظرية النقد العربي وتطورها إلى عصرنا ، الدار العربية للكتاب
ليبيا ، تونس ، ط ، 1984 .
- ⁰⁸ - محمد زغلول سلام ، تاريخ النقد العربي ، دار المعارف مصر ، ط ، دت ، ج 02 .
- ⁰⁹ - إحسان عباس ، تاريخ النقد الأدبي عند العرب ، دار الشروق للنشر و التوزيع ، عمان
الأردن ، ط ، دت ، 439 .
- ¹⁰ - محمد زكي العشماوي ، قضايا النقد الأدبي بين القديم و الحديث ، دار النهضة العربية،
بيروت لبنان ، ط ، 1979 .